المقـــــام الشعري بين الواقع والمتخيل
دراسة نصية لقصيدة "عاشق من فلسطين"

أ- بشار إبراهيم جامعة بسكرة

تمهيـــد:

بعد أن اتّجه الدّرس اللّساني في السّنوات الأخيرة إلى لسانيات الكلام، واتّسعت الدّراسات المهتمّة بوظائف اللّغة، طفق البحث النّصيّ يستعين بعوامل خارجية، إذ «لم يعد النّص نفسه وبناؤه النّحويّ أو الدّلاليّ(...) نقطة الارتكاز في دراسات علم اللّغة النّصيّ، بل الممارسات الاتّصالية العملية التي تؤسّس النّصّ، حيث تكون هذه بالطبع (...) قابلة للتوضيح فقط بوساطة سياقات مجتمعية واجتماعية شاملة. لم تعد النّصوص مهمّة فقط بوصفها إنتاجا منتهيا (...) ممّا يمكن تحليله نحويا و/أو دلاليّا، بل أصبحت تُفحَص بوصفها عناصرَ أحداث عامّة، وأدوات لتحقيق حدس معيّن للمتكلّم من ناحية اتّصالية واجتماعية».[1] وهذا الطّرح الجديد في الدّراسة النّصيّة، أفضى إلى الاستفادة من فروع معرفية أخرى، مثل علم الاجتماع اللّغوي وعلم النّفس اللّغويّ وعلم التّواصل، وغيرها ممّا تتوسّل به اللّسانيات إلى معالجة السّياق بمعناه العامّ، وبخاصة بعد ما صار موضوعا لعديد التّخصّصات، وفي مقدّمتها التّداولية.

وأقل ما يقال عن التداولية إنها العلم الذي يهتم بدراسة اللّغة في الاستعمال أو في التّواصل، فالمعنى ليس شيئا متأصّلا في الكلمات، ولا مقتصرا على المتكلّم بمفرده، ولا السامع بمعزل عن غيره. إنّ المعنى مرتبط بتداول اللّغة بين المتكلّم والسّامع في سياق محدّد[2].

في مفهـــوم المقام:

يتداخل مصطلح المقام في الدراسات اللسانية والنقدية الحديثة مع مصطلح السياق بصورة كبيرة، وربما هذا راجع لكونهما قد شغلا اهتمام اللسانيين في زمن متقارب، توجه فيه البحث نحو النص والخطاب. لكن من ينعم النظر بين المصطلحين يجد فروقا بينهما، فالسّياق يتسع ليشمل عناصر الموقف الكلامي من متكلم ومستمع ومناسبة[3]، والعلاقات الاجتماعية والثقافية والنّفسيّة التي تحيط بإنتاج الملفوظ، وهو ما يسمى بالسياق الخارجي، كما قد يضيق ليدل على تجاور لغويّ محض(وحدات معجمية، صرفية، تركيبية)، [4] تتفاعل فيما بينها لتحدث دلالة لم تكن لها قبل الدخول في ذلك المجموع، وهذا ما يسمى بالسياق اللغوي. بينما ينحصر المقام في العناصر الخارجية التي تحيط بإنتاج النص. وهذا موقف جل الدارسين لكنه لم يسلم من المعارضة؛ فمحمد العمري يقدم اقتراحا جديدا قائلا «لا بد من التمييز بين المقام والسياق، وذلك بحصر الثاني في العلاقات بين الوحدات اللسانية داخل التركيب: سياق كلمة أو وحدة صوتية مثلا»[5].

إنّ ما يعنينا-هاهنا-هو المقام (السّياق الخارجيّ)، الذي يشمل عناصر الفعل الكلامي؛ من متكلّم، ومتلق، والزّمان الذّي يحكم النّص، والمكان الذّي يؤطّره، والأطراف المشاركة، والوساطة وهلمّ جرّا، بيد أنّه ليس من الضروري الإجابة عنها كلّها، فبحكم معالجتنا خطابا أدبيا سنكتفي بالإجابة عن:

المتكلّم: الشاعر محمود درويش.

المتلقّي: جمهور القّراء.

زمان النّص: 1966.

المكان المؤطّر: ؟

الوساطة: ديوان مطبوع

الموضوع: قصيدة شعريّة

تكاد تتّسم العناصر السّابقة بالعمومية، وفي تيك خصوصية للخطاب الشّعريّ، إذ إنّ المقام في الأعمال الأدبية والشّعريّة منها بخاصّة لا يتشبّث بالواقعية والعينية بقدر ما يتّصف بالسّموّ عن الواقع والإطلاق. وبعبارة أدق «إنّ الرّسالة الشعرية تفتقر إلى السياق، إذ تنتمي إلى تواصل تخيّلي ومفترض بين الباثّ والمتلقّي، فالمبدع يجرّد من ذاته ذاتا تخيلية، تمكّنه من اختلاق سياق معيّن يضمن له التّواصل والتفاعل وبثّ الرّسالة، كما أنّ المتلقّي يقلب اللّغة، فيتخيّل ذاتا تبثّ له الرّسالة وتعتبره مقصودا بها، فيتفاعل وينجز حدث القراءة، ثمّ يتخيّل سياقا معيّنا لهذا الحدث وذلك التّفاعل» [6]. وبالنّسبة لخطاب"عاشق من فلسطين" فإنّه يتراوح بين المقام الواقعيّ والتّخيلي، وتتناهى فيه الحسيّة بالتّجريدية من أجل تمثّل الواقع الحسّي الفعلي في صورة جمالية ممكنة، ولكي نستشفّ مغزى هذه الطريقة في الكتابة جدير بنا أن نجيب أولا عن السّؤال الآتي: من هو المتكلّم في هذا الخطاب؟

1- المتكلّم

يمثّل المتكلّم أحد عناصر المقام الرّئيسة؛ بل يعد«الذّات المحوريّة في إنتاج الخطاب، لأنّه هو الذّي يتلفّظ به من أجل التّعبير عن مقاصد معيّنة، (...) ويجسّد ذاته من خلال بناء خطابه باعتماد إستراتيجية خطابية، تمتدّ من مرحلة تحليل السّياق ذهنيا والاستعداد له بما في ذلك اختيار العلامة اللّغوية الملائمة وبما يضمن تحقّق منفعته الذاتية، بتوظيف كفاءته للنّجاح في نقل أفكاره بتنوّعات مناسبة».[7] هذه الامتيازات التّي يملكها المتكلّم والخطوات التّي يسلكها تجعل مقاربة المعنى في النّصّ دون استحضاره أمرا فاشلا، وبخاصّة أنّ جزءا من النّصوص المتداولة يوميا تفهم في إطار مقاصد المتكلّمين، وتؤدّي وظيفتها تبعا لمكانتهم في البنية المجتمعيّة.

إنّ المرسل للفعل اللّغويّ يبني عالمه كشيء ويبني ذاته أيضا من خلال الخطاب الذّي ينتجه ويتكوّن فيه وينتج عنه في الآن ذاته [8]، وهذا ما يرسخ سيرورة اللّغة، وميزتها الاحتوائية الضامنة لتفسير نفسها وغيرها، فما وصل إلينا من خطابات

مكتوبة منسوبة إلى ذوات غائبة لم تعرقل فهمنا لها ومعرفتنا لمنتجيها من خلال لغتهم فقط. ومن جهة أخرى تسهم طبيعة النّصوص في استكناه خصوصيات المتكلّم وتحديد كيفية التعامل معه، فالنص يفضح صاحبه وربما كان ذلك ناتجا عما تولده الثقافة الخاصة بالمتكلم من معجم خاص يخضع وجوده في ذاكرة المتكلم إلى المستوى الثقافي والاجتماعي؛ كأن يكون معلما أو عالما أو طبيبا أو كاتبا، كما يخضع في استخدامه لطبيعة الموقف اللغوي بكامله من جهة، ولموقف المتكلم موضوع الحديث ومن المخاطَب، (9) فالنّصوص الشعرية تنتج من ذات خاصّة، إنّ«الإنسان الشاعر هو المتّحد مع ذاته والذّي يواجه الأشياء القائمة ببراءة وبنبرة تفيض عشقا تجعل من الشعر في النّهاية المسكن الوحيد للإنسان والخلاص الحقيقي للنّفس من سيوف الانتظار والمطاردة».(10)

والمتكلّم في هذا الخطاب هو الشاعر محمود درويش بما أن الديوان الذّي أُخذت منه القصيدة منسوب إليه، وهو شاعر فلسطيني معاصر سخّر شعره للدّفاع عن وطنه المغتصب. ولكن إلى أيّ مدى صدق شعرُه ذاته

الواقعية؟

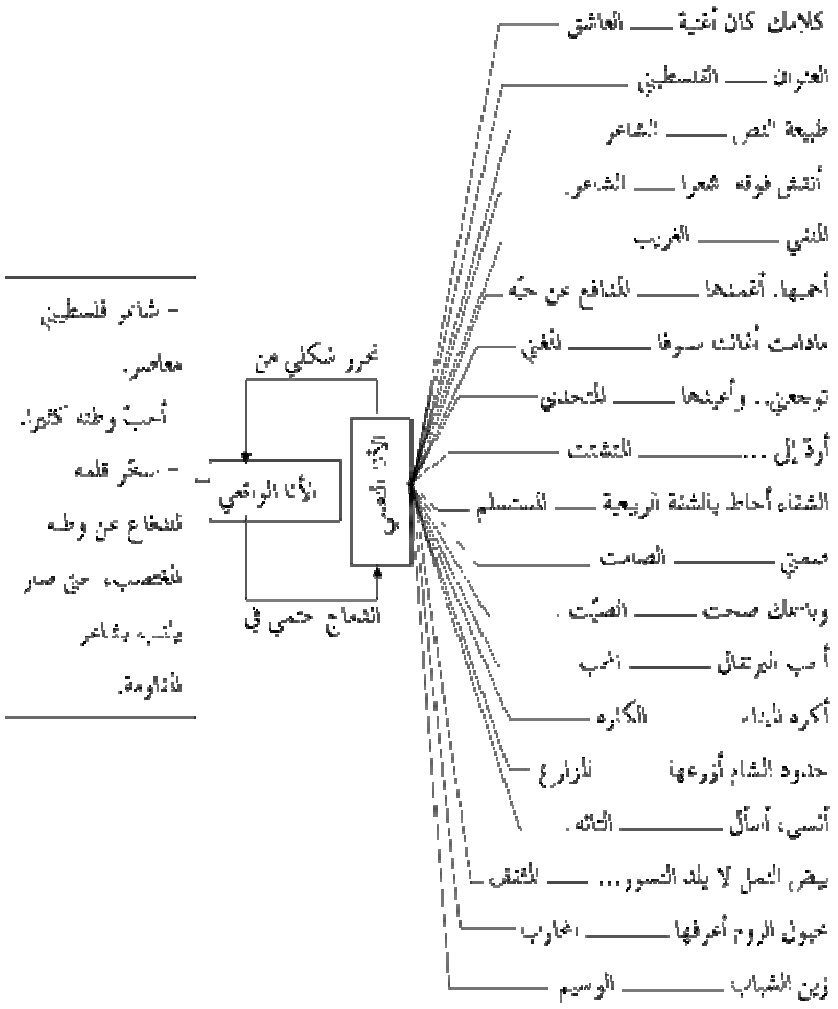

كلامك كان أغنية ـــــ العاشق
العنوان ـــــ الفلسطيني
طبيعة النص ـــــ الشاعر
أنقش فوقه شعرا ـــــ الشاعر.
المنفي ـــــ الغريب
أحميها. أغمدها ـــــ المدافع عن حبّه
مادامت أغانيه سيوفا ـــــ المغني
توجعني.. وأحيدها ـــــ المتحدي
أرق إلى ... ـــــ المتشتت
الشتاء أحاط بالشفة الربيعية ـــــ المستسلم
صمتي ـــــ الصامت
وباسمك صحت ـــــ الصيّت.
أحب البرتقال ـــــ المحب
أكره الميناء الكاره
حدود الشام أوزعها المزارع
أنسى، أسأل ـــــ التائه.
يظن النصل لا يلد النسور... ـــــ المثقف
خيول الروم أعرفها ـــــ المحارب
زين الشباب ـــــ الوسيم
تحرر شكلي من
الأنا الواقعي
الأنا النصي
اندماج حتمي في
- شاعر فلسطيني
معاصر.
أحب وطنه كثيرا.
- سخر قلمه
للدفاع عن وطنه
المغتصب، حتى صار
يلقب بشاعر
المقاومة.

القراءة السّطحية للعنوان والخطاب تدلّ على قصّة حبّ وهيام يعيشها الشاعر مع ذات أنثوية، وإذا ما استثنينا بعض اللّفتات السّريعة من الشاعر (مرثية الوطن، نكتبنا...) فإنّ هناك تمايزا كبيرا بين ما هو مفترض في الأنا وما يفعله الأنا النّصيّ.

إنّ ما يقدّمه الأنا الواقعيّ وما يختزنه ذهن المتلقّي يعدّ ضئيلا جدّا مع ما يُستنبط من الأنا النّصّيّ، فالشاعر استطاع أن يبني ذاته الفريدة في النصّ، ويشكّلها وفق ما تمليه رغباته ومعتقداته وتصوّراته، هذه الذّات التي اكتسبت فردانيتها من تعددها وتناقضها في الآن ذاته؛ إذ كان الأنا النّصّيّ عاشقا وشاعرا وفارسا، كما كان مشتّتا وملتئما. على أنّ هذه السّمات المتجاوزة للاعتيادية ما انفكّت عن ملامح الواقعيّة، وبخاصّة في الأركان الركينة في إيديولوجية الشّاعر (الشّاعريّة، الفلسطينية، المقاومة) .

وفي مقابل ذلك يُظهر الخطاب الشّعريّ حالة توتّر يعيشها المبدع بين الأنا الشّعريّ والواقعيّ، ناجمة عن دوام الاطّلاع إلى التّحرّر ولو بالمحاكاة الملتوية الموحية لما وُجد في الواقع أو ارتسم في الذّهن، ومع ذلك يظلّ الشاعر محكوما بنسبة ما لميكانيزمات التّواصل وفي مقدّمتها المتلقّي.

يدنو المتكلّم من متلقّي رسالته بالبراعة في استشراف مكامنه وأحاسيسه، واستثمارها بصورة أو بأخرى في بناء خطابه، وعليه يصبح تشظّي الذّات النّصّيّة شعريّا، وتنوّع أحوالها وتعدّد أدوارها نتيجة مرتقبة لاتّساع وشمولية القرّاء.

إنّ التّواصل بين المتكلّم والمتلقّي في الخطاب الشّعريّ والأدبي عموما حالة خاصّة، قلّما تحكمه المباشرة والعينية بالنّسبة للكاتب والقارئ، ولعل في الرّسم الآتي تقريبا لطبيعة المتكلّم والمتلقّي في العمل الأدبي:[11]

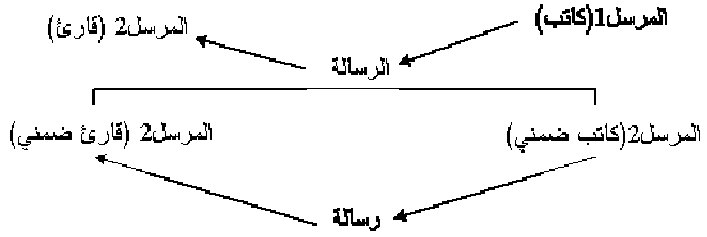

حيث يلحظ افتراضية العقد المبرم بين طرفي التّواصل، فـــ«الأديب/الكاتب لا يعرف – في معظم الأحوال– شيئا عن متلقّيه المفترضين، أو إنّ ما يعرفه عنهم ضئيل نسبيا، كما أنّه يجهل كلّ الجهل المقام الذّي سيتلقّون فيه خطابه».[12]

واستكمالا لماهية المتكلّم في الخطاب المدروس في علاقته مع القارئ، سنقدّم أمثلة تبرز المقصدية وتجلّياتها من خلال انتقائية العلامة، وقصدية التصّوير.

أ– **قصدية العلامة:**

المتأمّل سير الدّلالات في الخطاب يجد تواتر الألفاظ المتعلّقة بالطبيعة (البرتقال، قشر البرتقال، الصّحراء، حديقتي، القمح، المّاء، النّار، البحر، الرّمل، الفلّ، عرائش الأيك، سماد، النّخلة، البيد، الغاب). وهذا الاهتمام لا يمكن أن يكون اعتباطيا أو عفويا، بل يخيّل إلينا أنّه استجابة لنزعتين، ذاتية وخارجية:

– تتعلّق الأولى بحبّ الشاعر للأرض والحنين إليها، وإلى كلّ ما تدل عليه وترمز له من اخضرار وهويّة، وتجذّر وأصالة، وارتفاع على الأرض ورفعة.

– أمّا النزعة الثانية فمركزها العقد المبرم افتراضا بين الشاعر والقارئ؛ فدرويش يعلم أن أغلب قرّائه من العالم العربي، لذلك ينحاز قسرا وطوعا إلى استمالة القارئ عبر رومنطيقية فذّة، تتّحد فيها المحبوبة مع الأرض ويتمفصل بينهما العاشق/المقاوم في صناعة علاقات المقارنة والتشبيه.

ب– قصدية المقارنة والتشبيه:

تكشف التراكيب التشبيهية وبنيات المقارنة عن رؤية الشاعر للعالم، ثمّ إنّها تقنية ناجحة لاستثارة القارئ، وليس أدل على ذلك من قوله:

سأكتب جملة أغلى من الشهداء والقبل
فلسطينية كانت..و لم تزل.[13]

إذ إن الشاعر بمقارنته بين فلسطينية المحبوبة من جهة، وغلاوة الشهادة والحب من جهة أخرى، يكون قد وظّف محاورَ رئيسة في تصوير مكامنه:

- المحور الديني، تُبرزه الأبعاد الروحية والمكانة الخاصة للشهيد في الفكر الجمعي.
- المحور العاطفي؛ تترجمه مكانة الحب والعشق لدى الإنسان.
- المحور الديني – العاطفي؛ تظهر في تعلق الشاعر بأرضه روحا وعاطفة.

ويعضد ما سبق قول الشاعر:

وأنت كنخلة في البال
ما انكسرت لعاصفة وحطّاب
وما جزّت ضفائرها
وحوشُ البيد والغاب. (14)

فـــلا نعدم أنّ الشاعر شبّه محبوبته بالنخلة استجابة لمكانة النخلة في مرجعيته الفكرية، من حيث إنها وجدت مع العربي وارتبطت به، حتى صارت مرآة لشموخه ورمزا لأنفته وقوته، وعليه يكون توظيف رمز النخلة مبنيا على خلفية قومية.

2- المتلقّـــــي: في كثير من الخطابات يكون المتلقّي غاية العملية التواصلية، ومركز اهتمام المتكلّم؛ إذ لا يمكن أن يبني المرسل لغته دون أن يقصد شخصا معيّنا، هذا المتلقي يتدخل في صياغة الخطاب بدرجات متفاوتة بحسب طبيعة المتلقي والخطاب في الآن ذاته.

والمتخاطبان في اللّغة العادية يختلفان عنهما في اللغة الأدبية، فكثيرا ما يعرف المتكلم والمتلقي بعضهما بعضا في النّصوص العادية، ويبنيان تواصلهما على ميثاق معيّن ومعرفة مسبقة بخلاف ما عليه الحال في النصوص الأدبية. حيث لا ينكشف المعنى إلا بالتأويل، و«لا يعتبر تأويل الملفوظات في المنظور التداولي كترتيب وحدات مجملة للمعنى، يكتفي المخاطَب بالتعرف عليها ودمجها، بل كشبكة من التعليمات التي تمكنه

من بناء المعنى، ويقدمها المتكلم كفرضيات موجهه إلى المرسل إليه وكفرضيات يوجهها المرسل إليه إلى المتكلم».[15]

– وممّا سبق يتشكّل السّؤال الآتي: من هو المتلقّي في الخطاب "عاشق من فلسطين"؟

أشرنا في حديثنا عن المقام إلى كون المتلقّي عاما ومطلقا يمثّله جمهور القرّاء، الذّين ما تنفك عنهم صورة الشاعر المقاوم المحبّ لوطنه، ولكن إلى أيّ مدى صدقت توقّعَ القارئ وجهةُ الخطاب؟

توزّعت نظرة اللّسانيين والنّقاد إلى القارئ على بضع شعب، كان فيها مقصودا، ونموذجيا، وخبيرا، ومثاليا، ومعاصرا، وضمنيا.[16]

ولعلّ القارئ الضمني أكثر الأنواع استيعابا لطبيعة المتلقّي الذي نحن بصدد استكشافه، ذلك أنّه «لا يكتسي أيّ وجود إمبريقي(Empirique)، لأنّه يقع داخل النصّ ذاته، فالنصّ لا يصبح متحقّقا إلاّ إذا قرئ في ظلّ شروط التحقق التي يقدّمها النص لقارئه الضمني».[17] وكذلك فَعل المتكلّم في الخطاب المعني عند تفاعله مع جمهور القرّاء، وليس أدلّ على ذلك من لجوئه إلى الحذف والإشارة في أحايين كثيرة (فلسطينية كانت..ولم تزل، مرثية الوطن/نكبتنا/الميناء)، وما كان الشاعر ليلجأ إلى ذلك حتى عقد ميثاقا افتراضيا مع المتلقي، فهذه الإشارات وتلك الفراغات تولّد إحساسا قويّا بضرورة فكّها وملئها من لدن القارئ.

والنصّ الأدبي–كما يؤكّد امبرتو إيكو(E.Eco) – مفتوح، يترك لقارئه المبادرة على التأويل والحرية في فهمه وملء فراغاته، التي يتعمّد إيجادها استعراضا لوظيفته الجمالية وتنشيطا للعبة القراءة، هذه الطريقة الجديدة التي تكاد تُعمّم على النّصوص الأدبية الحديثة تتيح للقارئ القدرة على استقصاء المعاني الممكنة والتأويلات المحتملة، ممّا يجعله يتجاوز القراءة الأحادية ليحقّق ما يسمّى بالقراءة الجمع اللاّمتناهية. ومن هذا المنطلق ذهب بارت إلى أن النص لا يخلد لكونه فرض معنى واحدا على أناس مختلفين، وإنّما لكونه يوحي بمعان مختلفة لقارئ واحد، وتظلّ رموزه مدعاة للتّساؤل والتّأويل عبر أزمنة متعدّدة[18] وأمكنة متنوّعة وظروف متمايزة.

إنّ وجهة الخطاب الإجمالية ودلالته ورموزه تفضح إحساسا قويّا بالغربة والتّشتّت وفقدان الهوية والتّضحية، بلّ لا يكاد يخرج معجم الشاعر عن هذا الإطار، ويستطيع القارئ العادي- على سطحية نظرته- إدراك هذا بدرجة ما، ويهتدي القارئ المتجرد من تاريخيته إلى استشعار ذلك، ولا يأل القارئ الضمني جهدا كبيرا في حل ألغاز الخطاب ودقائقه، ومع ذلك لا يزعم أحد منهم غلق النص والإحاطة به، فالنص قوة متحررة ينعتق من المنتج ولا ينجر مع المتلقي، ولا يركن إلى نسقه، إنه تداول اللّغة بين المقاصد والبنيات والأفعال والتّأويلات، وأمور أخرى لّما تضبط بعد.

2- الزّمـــــان

لا يستقرّ الزّمان في النصوص عموما والأدبية منها خصوصا على حالة معيّنة أو يُنظر إليه بمنظار محدّد ووحيد، فالزمان الواقعي تتلاشى ملامحه الأصلية، وتتشكّل مرّة أخرى تبعا للإطار التّخييلي الذي يصنع أحداث الخطاب ووقائعه، وكذلك الأمر بالنسبة لزمن إنتاج الخطاب وتلقيه؛ حيث تأخذان معنى السّطحية ومنحى العمومية، ومع ذلك يظل الخطاب الشعري يدين ولو بالتّلميح للقيد الزّماني الحقيقي.

يقسّم الزّمن إلى جهات عدّة وبمقاييس شتّى، ومن بين هذه التّقسيمات وأوجزها تلك التي تجعل منه صنفين: (19)

1- زمن خارج نصّي: ويضم زمن الكتابة وزمن القراءة.

2- زمن داخلي أو زمن تخييلي.

ولكلّ منهما نصيب في صناعة زمان الخطاب، ولكن هل يستويان حضورا وفعالية؟

إنّ زمن الكتابة في الخطاب المعني هو عام1966، كما هو مثبت في الصّفحة السابقة للقصيدة في الديوان، على أن هذا التاريخ لا تربطه بالخطاب صلة خاصة أو علاقة تفاعلية ترجمتهما سيرورة الأحداث في الخطاب أو معرفتنا بالعالم. وعليه تصير معطيات الواقعية الاجتماعية ضربا من الاعتيادية أو الثانوية، على الأقلّ في هذا الخطاب

وما شاكله من خطابات شعرية حديثة؛ لأنّ الشاعر في زمن الكتابة ينظر إلى الحياة من طرف خفي، وقد يتجاهل الموقف الزمني لئلا يخلد شعره إلى المناسباتية فيركن إلى الانتهاء.

ولعلّ في تخلّي الشاعر الحديث عن هذه القيود مراعاةً لزمن القراءة؛ فقراءة الخطاب الشعري تستمر كلما تولدت منه معان وإيحاءات جديدة. وعليه يتطلّع المبدع إلى تخليد عمله عبر اجتثاثه من الزمن الواقعي.

وفي مقابل الزمن الخارجي يضطلع الزمن الداخلي أو التخييلي بدور أكثر عمقا وجمالية في تشكيل مقامية الخطاب الشعري، ويتمركز الزمن الداخلي في «صيغ الأفعال التامة والناقصة وكذلك ظروف الزمان وبعض البنى التركيبية الأخرى في الجملة، ولكنّ الأفعال تبقى أوفر تلك الوسائل دقّة واستعمالا».[20]

وبالنسبة للأفعال في خطاب "عاشق من فلسطين" فقد توزّعت على زمن ذي ثلاث شعب؛ دلّ جزء منها على أحداث ماضية (منقضية ومستمرّة)، ورصد جزء آخر وقائعَ آنية دينامية، واستشرف جزء ثالث المستقبل بنظرة تفاؤلية.

تعلّقت الأفعال الماضوية بوضعيات سلبية، وعبّرت عن وقائعَ مأساوية، وكأنّ ماضي الشاعر مليءٌ بالمراهنات والأخطاء، التي كان سببها الرئيس العدوان الصهيوني على فلسطين(الشقاء أحاط بالشفة الربيعية، هاجر باب منزلنا، انكسرت مرايانا، لم نتقن سوى مرثية الوطن، رأيتك في أغاني اليتم والبؤس، ركضت إليك كالأيتام، كانت الدنيا عيون الشتاء، قمر تصلّب في ليالينا...)، فهذه الأحداث وغيرها تلوح إلى تقلبات الواقع وتغيراته بعد سقوط الأرض تحت سيطرة الاحتلال. وعلى الرغم من ذلك يوجد في الماضي ما يستحق التذكر من أيام البطولة والمجد:

وباسمك، صحتُ في الوديانْ:
خيولُ الروم!.. أعرفها
وإن يتبدَّل الميدان! [21]

أما الزمن الحاضر–وهو الزمن الغالب في الخطاب– فقد جسد حالة صراع وتوتر بين الشاعر ومشاهد المقاومة والاستسلام، وكذا صورُ الانتصار والانهزام (توجعني، أعبدها، أحميها، يشعل، نشرعها، نزرعها، تسحب، أكتب، أنقّش...). إن هذه الأفعال ساعدت على إقامة علاقة تفاعلية بين العاشق والآخر من جهة، وبين الشاعر والقارئ من جهة أخرى، ولعلّ في تركيز الخطاب على تسجيل الوقائع بالزمن الحاضر تحيينا لموضوع الخطاب، وبحثا عن حيويته في إطاره الآني التخييلي.

وفي خضم الحركية الزمنية للأفعال الماضوية والحاضرة بين السيرورة والانقطاع، وبين الدلالة على مجد غائب وصراع راهن، تستشرف أفعالٌ الغَدَ بمعاني القوة والانتصار (كلي لحمي إذا ما نمت يا ديدان، سوف أخيط منديلا، سأكتب، ليذكر جيلنا الآتي مساربه إلى البيت...).

وهكذا تتضافر جهات الزمن الثلاث على تباعدها وتشعبها في إنشاء زمن خاص للخطاب الشعري، تتناسق لأجله بنيات داخلية وخارجية، لتصنع انسجام أحداث الخطاب زمنيا.

3- المكـــــــان:

يستتبع الحديث عن الزمان حديثا عن المكان في الخطاب الشعري، وكلاهما يمثل ركيزة في بناء المقام، وفهم الخطاب. ويشغل المكان بعدا إستراتيجيا في حياة الناس؛ إذ« به يحيا الإنسان، فهو يتأثر ويؤثّر فيه وينظمّه ويتكيف معه، ولذلك فإنّه يحتل حيّزا كبيرا في الاستعمال اللغوي العادي»[22]، والأعمال الفنية التي تعالج قضايا حق الوجود والتملك.

وتقوى الوشيجة الترابطية بين المكان والإنسان وتنكشف صورها عندما تتغير ملامح الأرض أو يفتقد الوطن، ويكون المعبّر عن هذه الحالة فنّانا عايش هذا التمايز واقعيا، ولَلْخطاب المدروس أبرز أنموذج لذلك؛ حيث إنّه يكاد يقتصر على تصوير الأمكنة بأدقّ تفاصيلها (وراء الباب، العتبة، البيت، حجر...) وأوسع تجلياتها

(الصحراء، الأرض، الوطن، الميدان...)، ولكن أغلب هذه الفضاءات مفقود أو شبه مفقود.

لقد أدت الفضاءات المكانية دورا تخصيصيا للأحداث، وعكست معانيَ تراود الشاعر بقوة، حتى تحققت على سطح الخطاب بشكل موسع؛ فمن العنوان الذي يعد مفتاح الولوج إلى النص، تتجلى أهمية المكان لدى الشاعر""عاشق من فلسطين". وقد استتبع ذلك تحديداتٌ مكانية عدة عكست معاني الغربة والأسى (الميناء، المنفى، السجن، العتبة الخريفية، جبال الشوك،...) ومعاني الرغبة في الاستقرار والأمن (باب المترل، البيت،...)، في حين أكدت بعض الفضاءات حب الشاعر للفن(صدر الجيتار، دفاتري،...). هذا وقد دخلت التحديدات المكانية في بعض الوصلات مع مفاهيم غير متوقعة (وراء الليل والأوجاع، سطوح نكبتنا، العتبة الخريفية،...)، فأضافت جمالية شعرية صنعها امتزاج المكان بنفسية الشاعر وواقعه المـــر.

الفضاء	تخصيصه	المكان	تخصيصه
دفاتري	القديمة	جبال	الشوك
وراء الليل	والأوجاع	الأطلال	مرتبطة بالحزن وألم الفراق
شعاع	الدمع والجرح	مقاهي	الليل
عتبتنا	الخريفية	خوابي	الماء والقمح

إنّ نَعْيَ الشاعر لتلك الأمكنة الواقعية والمتخيلة والمتراوحة بين الضيق والاتّساع وبين الانغلاق والانفتاح، لا ينحصر على نطاقها الفيزيائي البحت، أو دلالاتها اللغوية وإنّما يُحي معها ذكريات الطفولة وطعم الأسرة، ويرسم فيها معنى الأمل، وطريق الحرية.

وصفوة القول إن الخطاب الشعري يصنع مقامه قطعةً قطعة، وتتساند عناصر التواصل المختلفة من متكلم ومتلق ومعرفة مشتركة بينهما وظروف الزمان والمكان، في فهم الخطاب ومعرفة مقاصده. ويتسم المقام الشعري في النصوص الحديثة بكونه ينحو إلى العمومية والإطلاق وقلّما يتقيد بقيود الواقع، وقد أتاح لنا خطاب "عاشق من فلسطين" إمكانية معرفة طرائق التفاعل بين الواقع الفعلي والخيال الشعري من خلال عمليات التفكيك والاختيار وإعادة التركيب والتوقع. ولعل هذه العمليات نجح في استثمارها الشاعر محمود درويش، أسهمت بشكل أو بآخر في خصوصية التجربة الشعرية لديه من حيث اكتسابُها قاعدةً جماهيرية عريضة تجمع المتلقي العام والخاص، ومن حيث سيرورتُها الزمانية والمكانية.

ولكن مهما قارب علماء لسانيات النص الفعلَ التواصلي بصورة تتضافر فيها العلمية والجمالية، ويتجلى على ضوئها الوعي الفعلي في صورة جمالية ممكنة يظل الخطاب الشعري يفيض جمالا وإيحائية كلما تجددت قراءته وتغير المقام

الهوامش والمراجع

(1) هاينه منه وديتر فيهفيجر، مدخل إلى علم اللّغة النّصيّ، ترجمة فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض- المملكة العربية السعودية، (دط)، 1419هـ- 1998م، ص61.

(2) ينظر محمود أحمد نحلة، آ فاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الأزاريطة، 2006، ص14.

(3) ينظر جيليان براون وجورج يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض – السعودية، (دط)، (دت). ص35. عبد الهادي الشّهري، استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي-ليبيا، ط1، 2004، ص45،47 .

(4) ينظر آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت-لبنان، ط1، جويلية، 2003، ص265، 266.

(5) حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون منشورات الاختلاف،ط1: 2007، ص 184.

(6) علي آيت أوشان، السياق والنص الشعريّ- من البنية إلى القراءة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1421هـ- 2000م، ص9.

(7) عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب-مقاربة لغوية تداولية، مرجع سابق، ص45.

(8) ينظر صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّص، دار الكتاب المصري، القاهرة- دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1425هـ-2004م، ص122.

(9) ينظر ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، دلالة السياق، أطروحة دكتوراه، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1424هـ، ص 604..

(10) علي آيت أوشان، السّياق والنّصّ الشّعريّ، مرجع سابق، ص134.

(11) محمّد خطّابي، لسانيات النّص-مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط1، 1991، ص303.

(12) المرجع نفسه، ص302.

(13) محمود درويش، الديوان، دار الحرية-بغداد، ط2، 2000م، ص43.

(14) المصدر نفسه، ص43.

(15) وتيكي كميلة، كتاب الإمتاع والمؤانسة بين سلطة الخطاب وقصدية الكتابة(مقاربة تداولية)، دار قرطبة، المحمدية، ط1 1425هـ/2004م، ص 146.

(16) ينظر علي آيت أوشان، السّياق والنص الشعري، مرجع سابق، ص105، 106 ،107.

(17) المرجع نفسه، 107.

(18) ينظر المرجع نفسه، ص108، 145.

(19) ينظر المرجع نفسه، ص157، 158.

(20) الأزهر الزناد، نسيج النص.بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، بيروت-لبنان، (دط)، (دت)، ص87.

(21) ديوان محمود درويش، مرجع سابق، ص 44..

(22) محمد مفتاح، دينامية النص-تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، الدار البيضـــاء-المغرب، ط2، حزيران 1990، ص69.